"تسليم تداولي"

البحث عن الحدود اللّسانية والأدبية في الفعل التّداولي والفعل الشّعري

Searching for the literary and linguistic Frontiers of the Pragmatic and Poetic Act

د.ذهبية حمو الحاج

الجزائر/ جامعة مولود معمري-تيزي وزو/ كلية الآداب واللغات/ قسم اللغة العربية وآدابها

Dr. Thaheiba Hamo Al-Haj

Department of Arabic Language and Literature/ Faculty of Arts and Languages / University of Tizi Ouzou/ Algeria

hamualhag@yahoo.com

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي

Turnitin - passed research

الملخص:

تعدّ التّداولية إنجازًا لسانيًا وأنّ مهمّتها معالجة اللّغة في بعدها الاستعمالي (التّواصلي) بالاستناد إلى ما هو داخل النّظام اللّساني وخارجه،بل تعدّ التّداولية تخصّصًا لسانيًا تدرس كيفية استخدام النّاس للأدلة اللّغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم، لذلك اتّخذت التّداولية مسارها المتميّز في سياق الإنجازوالإنجازية، ، ورشّحت الأفكار المجرّدة في قيمتها إلى أن تقاس بمدى مطابقتها للواقع وصياغتها عمليا، إلا أنّ مثل هذه الخاصية لا يمكن تطبيقها على كلّ شيء، لأنّ فهم طبيعة اللّغة تستدعي الاهتمام بالجانب التّواصلي، وبالخصوص الجانب الاستعمالي أو علاقة العلامات بمستعمليها، وهنا إحالة إلى مسؤولية ظروف الاستعمال في تحديد طبيعة البنية وتشكيلها .

وبهذا حين يتم قراءة القصيدة من المنظور السميو- لساني ينبغي الانطلاق من التّصوّر الذي يتّخذ القصيدة على أنّها نتاج متميّز بدقّة لغوية عالية، وعلى أنّها تأليف راق من أوضاع مختلفة، والذي يفترض أيضا أن يُعرف بها على أنّها تمتلك هذه الخواص، ولذلك على القارئ امتلاك فضلاً عن الكفاءات اللّسانية (الخاصّة باللّغة التي كُتبت بها القصيدة) الكفاءة الخطابية التي تُحدّد له القصيدة وتكشف له المعنى.

Abstract

In point of fact, pragmatics is regarded as a linguistic achievement to deal with the language in light of its communicative scope and in concordance with the exterior and the interior linguistic system and as a specialization to teach people how to use the linguistic acts in their speeches and everyday life dealings . All more so, as it is prominent to set the ideas in their contexts and it is important to pay attention to the communicative side of the language, that is to say, the linguistic side in use .

Consequently, reading a poem in terms of a lingo-semiotic scope should emanate from the principle that the poem is a distinguished product with a highly linguistic precision and regarded as an elegant composition from different aspects . Not only does a reader acquire the linguistic competence , the language of the poem, but he should have the rhetorical competence that manifests to him its content .

مقدّمة

لقد كثّر الحديث في السنوات الأخيرة عن العلاقة الرّابطة بين اللّسانيات ومختلف العلوم الأخرى، ولاسيما الأدب؛ نظرا لخصوصية هذا المجال، الذي يجعل اللّغة الإنسانية تتميّز بصبغة الذّاتية والتّداول والتّفاعل، مثلما تعدّدت الدّراسات التي تُحاول تقريب الأدب من المناهج الحديثة وأحدثها اللّسانيات والتّداولية، وعلى الرغم من بعض العقبات التي واجهت هذه الدّراسات إلا أنّ الباحثين كشفوا عن عدم استحالة التقريب بين هذه المجالات وكيفية اعتماد بعضها على بعض في حلّ مشاكل اللّغة البشرية من حيث الإنتاج والتأويل.

ينبغي التركيز على حدود المعرفة اللّسانية الخاصّة باللّغة، وحدود المعرفة اللّسانية الخاصّة بالشّعر، إذ نجد في توجّه حلقة موسكو المؤسّسة في ١٩١٥ التي عنيت بالشّعرية أنّ جاكبسون مدين لشعر كليبنكوف Klebnikov في موضوع مواجهته الأولى مع التّحليل اللّغوي في وسائله ووظائفه، يقول جاكبسون:» اللّغة الشّعرية التي أهملها النّحويون المحدثون، والتي تُمثّل المظاهر اللّسانية الأكثر قصدية، والموجّهة والمدمجة كانت ميدانا يدعو إلى تحليل جديد، ويفرض علينا دراسة اللعبة المتبادلة بين الصوت والمعنى». وفي ١٩٢١، يقترح جاكبسون ألا يهتمّ النّسج/ التركيب الصوتي بالأصوات، ولكنه يعنى بالفونيمات، بمعنى التّمثّلات الصوتية القادرة على الارتباط بالتمثّلات الدّلالية» ويذكر جاكبسون بعيدا عن هذا « لا أؤمن بالأشياء، لا أؤمن إلا بعلاقتها»، ويضيف جون ميشال أدام بعد ذلك:» لقد أخذنا من اللّسانيات نوعا من الخطوة المنهجية التي تبدو لنا ضرورية تعليميا دون وهم، ولا الرّغبة في قول كلّ شيء عن الشّعر».

١ – الوظيفة الذّاتية والوظيفة الشّعرية

إنَّ إقحامنا للملفوظات الشّعرية ذات الوظيفة الذّاتية في غايتها (بمعنى أنّها داخل نظام النصّ وإبراز مادية العلامات) في وضعية (س)، تجعلنا نعطيها دلالة خارج سياقها الأصلي، نُعطيها وظيفة تداولية جديدة، إذ نعطيها معنى مقاميا بالكامل، ومن ثمَّ ، فإعادة إدماج الملفوظات في التبادل يفقدها خصوصيتها المميّزة (الأدبية) التي تشتغل بقوانين أخرى غير قوانين الإيماء والتّفاعل.

أمّا الوظيفة الشّعرية فلا يمكن أن تتحدّد إلا انطلاقا من المقاربات المستمرة للّغة، والمنظور المنطلق منه منظور الرّسالة في ذاتها. يشير جاكبسون أنّ الوظيفة الشّعرية ليست هي الوظيفة المهيمنة لفنّ القول، وأنّها موجّهة نحو دور ثانوي في أنواع أخرى من الخطابات.

والوظيفة الشّعرية في غايتها الذّاتية ليست إلا مكوّنا من بنية معقّدة، ولكن مكوّن يحوّل بالضرورة العوامل الأخرى التي تُحدّد معها سلوك المجموع . وفي وقت آخر، ما يهمّ في هذا الجهد التّحديدي هو قيمة الكلمة، يقول جاكبسون:» ولكن كيف تظهر الشّعرية؟ في هذا، تُؤخذ الكلمة على أنّها كلمة وليس بديلًا بسيطًا لموضوع معيّن أو توسّع انفعالي، وفي هذا أيضا، إنّ الكلمات وتركيبها وصيغتها الدّاخلية والخارجية ليست علامات منفصلة عن الحقيقة، ولكنّها كلمات تملك وزنها الخاص وقيمتها الخاصّة. إنّ ما هو مرفوض في تعريف الشّعرية هو مبدأ تمثيل العالم، ومبدأ التّعبير عن الأنا، ممّا يتناقض مع الهدف الاجتماعي من استعمال اللّغة، وهو ما يؤدي بنا أيضا إلى قول أنّ «فهم التّحوّل التّداولي في علم اللّغة، على أنّه انعكاس لحاجات مجتمعية متغيّرة مهمّته اجتماعية بوجه عام»

، فإذا كان للكلمات وزنها وقيمتها الخاصّة، فهذا يعني أن عمل اللّغة حامل لقيمة إلى جانب العمل الذي يفرضه المؤلّف.

هناك من الباحثين من عدّ الشّعر فرعا من فروع اللّسانيات، ومن بينهم جون ديبوا J.Dubois، وإذا كانت اللّسانيات هي العلم الجامع لتخصّصات متعدّدة، فقد تلعب دور الوسيط بينها، وإذا كان الأدب نتاجا لغويا، فالمعرفة باللّغة ستساعد على معرفة الشّعر والعمل الشّعري.

لقد طرح رومان جاكبسون فكرته الرّائعة حول العلاقة الموجودة بين اللّسانيات والشّعريات، والمتمثّلة في التّساؤل حول الأمور التي تجعل من الرّسالة اللّفظية أثرا فنّيا متميّزا. ينبني منطلق اهتمام الشّعريات بالبنية اللّسانية، وإذا عددنا اللّسانيات هي العلم الملمّ بكل البنيات اللّسانية، فإنّ ما يجعل من الشّعر شعرا يمكن عدّه جزءًا من هذا العلم العام . أمّا الجانب السيميائي في الشّعر، فسيحيلنا حتما إلى ناحيتين: النّاحية التّداولية التي تهتم بالمقاصد الفكرية والإنسانية وما ينبثق منها من علاقة بتكوين الخطاب وأجناسه، والنّاحية الثّانية ستحيلنا إلى نمط بناء الخطاب وصياغته وترتيبه وكيفية إلقائه، وهنا تمتزج المعالم التّحليلية الثلاث التي حدّدها شارل موريس CH.Morris في النّموذج التّواصلي في ثلاثة أبعاد وهي: التّركيب، والدّلالة، والتّداول . يشير الجانب التّداولي إلى استعمال اللّغة الشّعرية في مقامات تواصلية معيّنة، وهو في الحقيقة بحث في البعد السيميائي المتوخّى من وراء التّراكيب والحمولات الدّلالية.

تعدّ التّداولية آخر إنجاز لساني، ومهمّتها معالجة اللّغة في بعدها الاستعمالي

(التّواصلي) بالاستناد إلى ما هو داخل النّظام اللّساني وخارجه، عملا بقول أحد الباحثين في هذا الصّدد:»التّداولية تخصّص لساني يدرس كيفية استخدام النّاس للأدلة اللّغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم، كما يعني من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث» . وإن كان الشّعر تُميّزه اللّغة الانزياحية والتّخييل، فهل تتلاءم التّداولية مع مثل هذا النّمط من الإنتاج اللّغوي البشري؟ علما أنّ أصل التّداولية منبثق من اللغة العادية وفلسفتها؟ كيف يمكن أن يلتقي الفنّ (الشّعر) مع الفلسفة (التّداولية)؟ إنّ غاية الفلسفة تكمن في العلم، أمّا غاية الشّعر فتحصل بما يحدثه من فعل الشّعر في نفوس متلقيه، فتقترن التّداولية بالشّعر في إحداث التّواصل أو الاعتماد على مفهومه من حيث هو «تبادل أدلّة بين ذات مرسلة وذات مستقبلة، حيث تنطلق الرّسالة من الذّات الأولى نحو الذّات الأخرى، وتقتضي العملية جوابا ضمنيا أو صريحا عمّا نتحدّث عنه» ، وإن كانت التّداولية تدرس اللّغة باعتبارها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية بمفهوم فرانسواز أرمينكو، فإنّنا نكون أمام مفهومين يلتقيان في كثير من النّقاط، وأهمّها تتمثّل في التّواصل (الذّاتي، الشّخصي، الاجتماعي....)، ويمكن الحديث عن التّداولية في الشّعر حتّى في حالة المكتوب.

أول من أثار مسألة الوظيفية في فلسفة اللغة العادية هو لوديفيج فجنشتاين L.Wignestein، وعندما تحدّث عن ألعاب اللّغةJeux de langage ، فكان المقصود موجّها نحو كيفية استخدام الكلمات، إن لا تحمل معنى واحدا، فقد تستخدم كلمة واحدة في وظائف متعدّدة، وهنا تتوضّح أيضا فكرة بنفينيست عندما يتحدّث عن الحيوية في اللّغة، وهي عودة أيضا إلى تحديد المعنى التّداولي على أنّه «مستخلص من مجموعة من عوامل المقام الذي قيلت فيه العبارة، وتشمل المتكلّم والمخاطَب

والمستمعين، والمكان والزمان والموضوع والأسلوب، والغاية التي يقصدها المتكلّم والنتائج العملية والسلوكية التي تحدثها العبارة في المخاطَب والمستمعين» .لقد أنتجت الدّراسات الوظيفية في السبعينات ما يدعى بالنّحو الوظيفي، وهو في الحقيقة عودة إلى وصف القدرات التواصلية عند المتخاطبين، والوقوف عند الدّراسة الوظيفية للجملة يعني دراسة بنية الخطاب الدّاخلية والخارجية في الوقت نفسه.

ولا تبتعد اللّسانيات النصّية عن المنحى الوظيفي في استعمال اللّغة، إذ تتجاوز فكرتها حدود الجملة، لتنضوي على الخطاب سواء في الجانب الكتابي أو الشّفوي، ومثلما واجهت الجانب الضّمني في الاستعمالات الخطابية، إذ تحتمل الجمل معاني مختلفة، تُفهم من السياق الذي ترد فيه، فالنصّ يُعدّ إنجازا لغويا يحتمل أبعادا شتّى.

وفي سياق الإنجاز والإنجازية، اتّخذت التّداولية مسارها المتميّز، ورشّحت الأفكار المجرّدة في قيمتها إلى أن تقاس بمدى مطابقتها للواقع وصياغتها عمليا، إلا أنّ مثل هذه الخاصية لا يمكن تطبيقها على كلّ شيء، لأنّ فهم طبيعة اللّغة تستدعي العناية بالجانب التّواصلي، ولا سيما الجانب الاستعمالي أو علاقة العلامات بمستعمليها، وهنا إحالة إلى مسؤولية ظروف الاستعمال في تحديد طبيعة البنية وتشكيلها، وبذلك نجد بعض الباحثين يجمعون على تعريف التّداولية بقولهم:» التّداولية جزء من السميائية التي تُعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات» ، إلى جانب من يربطها بالدّراسة التيتعنيبقضية التّلاؤم بين التّعابير الرّمزية والسياقات المرجعية والمقامية والحدثية والبشرية ، وذلك في حدود التّعريف العام الذي يحدّدها من الجانب الاستعمالي دائما.

٢- الشّعر والفعل التّواصلي

إذا انطلقنا من فكرة أنّ اللّغة البشرية تُفيد أول ما تُفيد التّواصل، فالشّعر ليس ببعيد عن هذا الغرض، إذ يحتكم إلى مرسل ومتلق (سامع أو قارئ)، فتتلخّص بذلك فكرة الاستعمال الخاصّة باللّغة (التّداولية) والتّواصل، يقول أحد الباحثين:»كلّ عمل شعري يعني تواصلا بين المبدع والمتلقي، والتّواصل يبدأ بتوصيل رسالة من نوع خاص ذات محتوى متّصل بالقيّم» . فإذا كان المتلقي يمثّل دورا حاسما في العملية الشّعرية، فإنّ التّعريف الذي نادى به بورس CH.S.Peirce والذي مفاده أنّ التّداولية متمثّلة في علاقة العلامات بمؤوليها يتلاءم من حيث ما يقوم به الطرف الثّاني من تأويل بغرض الوصول إلى المقاصد الحقيقية، التي ينبغي على الشّاعر الإشارة إليها، ومحاولة توجيه المتلقي إليها، وهو بدوره ملزم بالتّسلّح ثقافيا وفنّيا وجماليا لفتح مغاليق النصّ الشّعري الموجّه إليه، يقول عبد الله حمادي :»إنّ مبدأ الفهم في الشّعر يبقى مرهونا بتوافر المعنى القابل للإدراك من طرف المتلقي، أو بتوافر الاستعداد الفنّي والجمالي والثّقافي الذي يؤهّل المتلقي لاستنطاقه واستجلائه».

والوقوف عند الطرف الأول في الخطاب، سيحيلنا حتما إلى الفعل، إذ هو المبادر للعملية الخطابية، والحديث عن التأثير في المتخاطبين يكون بفعل فاعل أو بفعل قول، وهنا يمكن الرّجوع إلى فلسفة اللّغة العادية المؤسّسة على الفعل الكلامي، والتّداولية في أساسها ركنت إلى مبدأ اللّغة فعل تواصلي أولا وقبل أيّ شيء، و»البعد التّداولي لفعل الكلام يشهد جديد أنّ اللّغة لا تصف العالم فحسب، بل إنّ لها في المقابل وظيفة تأليف العلاقات بين المتخاطبين بعيدا

عن الملفوظات الشّعرية، حيث تكون الوظيفة فيها التّعبير عن العواطف» ، وإذا كان «الشّعر هو فعل الشّعر» فلسنا بعيدين عن هذا المفهوم، إلا أنّ المفارقة ستظهر في كيفية التّأثر في حدّ ذاته، فإذا كان القول يساوي العمل من حيث الإنجاز، فإنّ القول الشّعري يساوي التّخييل، فهذا الأخير يُحدث أثرا عند المتلقي، فيمكن أن نلخّص ذلك بهذا الشّكل:

تأسّس الفعل الكلامي عند أوستين على فكرة التّمييز بين الجمل التّقريرية والجمل الإنشائية/ الإنجازية، وهي فكرة طوّرها أكثر من مرّة، والأمر الذي تحتفظ به هو أنّ الجمل التّقريرية يمكن أن تتحوّل إلى جمل إنشائية، أي التّخلي عن صفتي الصّدق والكذب الملازمتين لها، وهنا حديث عن مطابقتها للواقع وعدم مطابقتها له، فإذا كانت اللّغة في التّداولية تعتمد دراستها على التّعبير عن الواقع، فإنّ اللّغة الشّعرية لا يمكن استبعادها عن تعبيرها عن الواقع، حتّى إن لازمتها صفة الخيال والتّخييل، لأنّ الإحالات الدّلالية في الشّعر وما يرتبط بالواقع، وبالحياة الإنسانية بأفراحها ومعاناتها يترك أثرا كبيرا في المتلقي، وربّما هو الغرض الذي وُجد الشّعر من أجله، فلا يمكن للشّاعر أن يبحر في خياله ويغوص فيه ما لم ينطلق من أرضية الواقع، التي يستوحي منها ما يستوحي ليبلور به تجربته أوّلا وتمثّلاته الشّعرية ثانيا، فما وظيفة الشّعر إلا الإفصاح وإظهار الواقع والإخبار عنه، فوسيلته التي هي اللّغة تعبّر عن

الواقع وتمثّله، ولكن تمثله يستدعي عدّة جهود، ذلك أنّ «اللّغات الطبيعية بنيات تُحدّد خصائصها (جزئيا على الأقل) ظروف استعمالها في إطار وظيفتها الأساسية، وظيفة التّواصل»[١٥]، لأنّ الابتعاد عن الواقع والارتباط به في الحين نفسه ليس بالأمر الهيّن، وتتضّح خيوطه في اللّغة الرّاقية المنزاحة، التي تناشد المتلقي بأن يتوصّل إليها دون أن يفقد صورة الإحساس عذريته وعذوبته.

وقبل الوصول إلى النص الشّعري، يمكننا التّساؤل حول الظروف التي أدّت إلى تشكل «علم» عام للتّواصل الأدبي. الشيء الأكيد أنّه لم يتم الوصول بين عشية وضحاها إلى تشكيل ما يدعى بلسانيات التّلفّظ[١٦]، وإنّما كان ذلك أمرا محتوما بالنّظر إلى حدود مجال مستقل مثل مجال اللّسانيات.

إنّ دراسة اللّغة بارتكازها على الكلمة والجملة شكّلت تخصّصا خصبا فهمنا من خلالها وبسرعة ضرورة استخلاص قوانين المحتويات الجملية وأفعال اللّغة، فمن نظام الجملة نمرّ إلى نظام العلامات، ثمّ من اللّغة إلى النصّ، وفي الأخير نمرّ من النصّ إلى الخطاب. وبهذه الطريقة بدأت اللّسانيات، وعلم الدّلالة، والسيميائيات، والتّداولية بتشكّلها كحقول مستقلة تماما ومقاربات خاصّة بالارتباط بعضها بعضا وشيئا فشيئا. وفي هذه الحالة تكون أمام ظاهرة تعدّد التّخصصات، وأمام مصدر لا متناه من الاختلافات والمناقشات، وإعادات الصياغة التي يمكن أن تكون محفّزةً وثريّةً، ولكن أيضا محفوفة بالمخاطر والغموض، فينبغي تطبيق أعلى النّظريات وأدقّها إذا أردنا أن نعرف وبصرامة الحدود الابستمولوجية والحقل المنهجي الخاص بكلّ تخصّص من هذه التّخصصات.

ويمكن الرّكون إلى العلاقات التّكاملية مثلا بين اللّسانيات والأدب، ولكن إلى أيّ

مدى ينبغي الوصول لإيجاد مبدأ تطوّرها التّاريخي في النظر إلى تبادلاتها وعلاقاتها منذ القرن الأخير، وفي حقيقة، تشكّلت اللّسانيات والأدب في حقول مستقلة بطريقة متوازية ومتلازمة في نوع من التّفاعل التّاريخي الكبير، يكشف كلّ حقل للآخر عن أنظمة إنتاجية مجرّدة، نظام اللّغة بالنسبة للّسانيات، ونظام النصّ بالنسبة للأدب، والملاحظ في ظهور التّداولية، هو تأخرها التاريخي ليست بوصفها علمًا، ولكن بوصفها بعدًا أو وظيفةً لكلّ تواصل يومي أو أدبي. والدّراسات التي تربط التّداولية باللّسانيات، أو تلك التي تربطها بتحليل الخطاب جدّ كثيرة، والشيء المؤكّد، والذي يُستنتج لا محالة من أغلب هذه الدّراسات هو وجود لعلامات خطابية موجّهة نحو نجاح التّواصل في المحيط التّلفّظي.

ومن العلاقات الأكثر قوة بين اللّسانيات والتّداولية، يبدو لنا التّميز الذي وضعه رولان ألوبير R.Eluard ، فبإبرازه للعلاقات بين اللّسانيات ونظرية التّواصل، يتحدّث عن اللّسانيات من النّوع الأول الذي يدخل في التّواصل المدرك كوسيلة لنقل المعلومة من مرسل إلى مرسل إليه، ولسانيات من النّوع الثّاني الذي يدخل في التّواصل المدرك كحيز للتلاقي والتّعبير الذّواتي. وفي الأخير لسانيات من النّوع الثالث (التي تدعى بالتّداولية) الذي يدخل في التّواصل المدرك كمحاولة للضّبط، حيث ينبغي أن نُضيف إلى نقل المعلومة لعبة الأدوار والأفعال التي يُعرف المتخاطبون عن طريقها باعتبارهم كذلك ويتصرّفون أيضا، ويؤسّسون بذلك جماعات لسانية في عالم لساني[١٧].

ومثل هذا الإدماج لا يجعل التّداولية علما مستقلا بالضرورة، ولكنّه يملك الفضل في تحديد حيّز للتّخاطب، وللتّفاعل المقسّم في المظاهر التّلفّظية الكبرى المفتوحة

والملمّة بالخطاب الأدبي. يلعب المشاركان في التّلفّظ دور المتلفّظ والمخاطَب، ولكن ينبغي الإشارة إلى أنّ هذه الأدوار فاعلة بطريقة يصبح المتلفّظ مخاطَبا، والمخاطَب متلفّظا. إنّ هذه التّعيينات في تمييز الأدوار تُشير إلى الاشتراك، ويمكن القول بتشارك المسؤولية التّفاعلية، وهو ما أبرزه بنفنيست في حديثه عن العلاقة التّناظرية. لنأخذ مثالا بسيطا، بقولنا أنّ قارئ قصيدة ما مدعوٌ للمشاركة في إنتاج التّلفّظ، أي مدعوٌ إلى الدّخول إبداعيا في مقام، حيث يشكّل السياق، الدّلالة، والمرجعية المحيط التّداولي لتواصل ناجح. وأن يقحم بعض اللّسانين جميع هذه القوى وهذه الأفعال التّداولية في المحتوى الجملي للملفوظات، فلهم كلّ الحرية. يمكننا دائما أن نُبرهن أنّ القيمة الإنشائية للملفوظات وحتّى الملفوظات الأكثر إنجازية بصراحة ناتجة بكلّ بساطة عن القوّة التّقريرية لملفوظ ما في سياق معيّن، وبهذا يكون القول لا يعني إلا القول، ولا يعني الفعل أبدا. فيبقى أن نعرف أنّ الوعد يمكن أن نتلفّظ به الآن، ويتمّ إنجازه في وقت لاحق مثل ما يحدث في الوصيّة بقولنا:» أقدّم هذا الشيء لهذا الشخص»، فيمكن أن ينجز الوعد هنا في اللحظة نفسها. فسواء تحقّق الوعد الآن أو بعد مدة من الزّمن، فذلك لا يغيّر شيئا من طبيعته.

إنّ مع إعادة اكتشاف الأعمال الشعرية للعصر الوسيط ولشفوية الشّعر، وإذا اعتبرنا أيضا الصدى الكبير الذي نالته الأغنية في وسائل الإعلام المعاصرة، فمن الحتمي أن تعرف المقاربة التّداولية للنصّ الأدبي الشهرة. إنّ أول درس يقدّمه النصّ تداوليا، يتمثّل في ضرورة بناء من خلال نظام القصيدة المغلق-الصّيغ، المعنى، البنى التركيبية، البنى الخاصة بالوزن، البنى العروضية، والبنى البلاغية- سياقا كافيا لإدراكه وفهمه. فالمقاربة الحدسية تمّ تفعليها من قراءة إلى قراءة، ومن حقبة إلى حقبة، ومن قرن إلى آخر. وهذه اللّغة في حالة فعل ليست إلاّ اللّغة في حالة قوّة.

والقصيدة مليئة بملفوظات محيّنة يمكن للّسانيات أن تصفها بالعلامات، ويمكن للسيميائيات أن توزّعها على شكل أنظمة. ولكن تبقى مهمّة التّداولية متمّثلة في الكشف عن مؤشرات تغيرات وصلابة القوّة الإنجازية للملفوظات، ولعبة الاستراتيجيات التفاعلية، الصّريحة والضمنية بالخصوص، والمظاهر الحجاجية الموسومة وغير الموسومة، وباختصار كلّ الفعالية الجليّة والمضمرة التي تخص البنى السّطحية القابلة للاستعلام بسهولة، والبنى العميقة مثل الجهاز البلاغي، والصّور المحقّقة والتناص المقيّد أو المعمّم.

إنّ النصّ الشّعري نفسه هو الذي يقوم بوضع السياقات المرجعية، والمقامية والتّفاعلية، يطابق اللّغة في إطار عمل، وموضوع التّداولية هو القراءة في فعل أكثر تشدّدا في حالة الشّعر من المواضعات التي تحدّدها بوصفها نصا وخطابا، إذ تبتعد عن المعايير المألوفة للغة العادية/ اليومية.

٣- حقل التّداولية

تأسّست التّداولية بوصفها تخصّصا مع تصوّر شارل موريسCH.Morris في كتابه Fondation of the theory of signs، وكان يستهدف بهذا الكتاب أمرين: تمديد الفكر البورسي وصياغة التّداولية بمصطلحات سيميائية «علاقة العلامات بمؤوليها». بالنسبة لشارل موريس، فإنّ الصّيغة السابقة والمرسومة للتّداولية هي البلاغة الأرسطوطالية والعبارات الإشارية (ضمائر الشّخص، الإشارات)، التي يرتبط معناها بسياق التّلفّظ تبرز بوضوح ضرورة أخذ هذه الظّواهر في الحسبان، وهي في علاقة مع التّلفّظ، والسياق المقامي من قبل المؤوّل، وتشكل المجال الأول في التّداولية.

يتمثّل المجال الثّاني في دراسة الأفعال الكلامية وأصولها في المدرسة التحليلية الأنجلوساكسونية (أوستين وسورل...). والأعمال الأولى بالخصوص كانت متعلّقة بدراسة التأثيرات القولية والأفعال الإنجازية (محاولة التّصنيف، ودراسة الشّروط التي تسيّر تحقيقها). والأعمال الحديثة انصبّت عنايتها على الأفعال اللّغوية غير المباشرة، وعلى ظاهرة الاستلزام لجرايسJ.P.Grice، وعلى الافتراضات المسبقة (الاقتضاءات). ويمكن الحديث عن المجال الثالث، الذي يركّز أساسا على الخطاب، ومثل تلك الأعمال التي أُنجزت حول النّظرية الحجاجية، والفضاءات المرجعية.

ومن الملاحظ من خلال ما ذكر أنّ التّداولية ليست حقلا موحّدا ومنسجما، فهي تغطّي قبل أيّ شيء مجموعة من الإشكالات، وتوجّها منهجيا مختلفا للمقاربات التّمثيلية المهيمنة في اللّسانيات. واستمرار التّموقع في الإطار السميائي لمؤسسيها، يعني البقاء ليس فقط في التّصوّر البيهافيوري ولكن في التصوّر الآلي للّغة عن طريق أولوية الاستعمال، وذلك يعني نقل المفترضات/ المقتضيات، حتى إن نقلت هذه الأخيرة ميتافيزيقا العلامة المرتكزة على علاقة العلامة بمرجعها (في حين تدرس التّداولية علاقة العلامة بمستعمليها). ولم تُفهم التّداولية بهذه الطّريقة، لأنّ التّداولية لم تكن العلامة تهمها، ولكن يهمّها الخطاب في سياق معيّن، وبوصفها نظريةً للخطاب، وليست نظرية للعلامة، فرهاناتها الأساسية كامنة في المعنى، الذي لا يتموقع في علاقة الكلمات بالأشياء، ولكن قبل أيّ شيء في بناء المرجعية ودخول التّلفّظ في إطار الخطاب. يمكن أن نضع في رصيد التّداولية ما يأتي:

برفض علم الدّلالة الذي لا يعبّر إلا على علاقة العلامة بالمرجع، والعناية بالعلاقات

بين النصّ والتّلفّظ والتّفاعل بين المرسل والمتلقي، تقوم التّداولية برفض نظرية العلامة التي توجّه إلى نظرية تتلاءم مع الأدب.

أنّها تعنى بالخطاب المثبت/ المؤكّد.

أنّها لا تفصل الخطاب الشّعري عن الخطابات الأخرى عن طريق ميزات دلالية، وأنّها بذلك تبتعد عن كلّ نظرية للإنزياح.

يفترض في الدّراسة التّداولية أن تكون مدوّنة البحث في علاقة مع الاستعمال الفعلي للغّة بهدف الكشف عن الخصائص التّداولية المختلفة، وما يتّصل بأطراف العملية الخطابية أثناء ممارستها اللّغوية. والإشكال الذي سيطرح ههنا يتمثّل في العودة إلى نصوص (قصائد) مرّ زمن على إنتاجها وأدائها، نظرا لما يميّز الخطاب المنطوق عن المكتوب، ومن ثمّة يمكن العودة إلى بعض أصناف التّداولية كالتّداولية الإبداعية التي تعالج النصوص الشّعرية والنّثرية، وتجعل الباحث أمام تمثيل بنوي لخصائص الخطاب المختلفة، وهي صيغ مرتبطة بمقامات تواصلية متعدّدة، ووظيفته في هذه الوضعية متمثّلة في رصد العلاقات بين الصّيغ والمواقف المرتبطة، وتحديد ما يمكن للمتكلّم والمخاطَب من مسؤولية من حيث الإنتاج والتأويل.

٣-١ المقاربات التّداولية للنصّ الأدبي

إنّ هذه المقاربات ليست مرتبطة بفلاسفة اللّغة العادية، ولكن مرتبطة باللّسانيين والشّعراء. وذلك يعني أنّها ترتبط باستراتيجيات مختلفة: يمكننا وبطريقة استكشافية التّمييز بين ثلاث استراتيجيات: التّيار بعد التوليدي، والتيّار السردي، وتيار نظرية التّلقي. يُعيد التيار الأول الحركة التي أُنجزت في مستوى الدّراسات الأدبية في قسم

من اللّسانيات إلى التّداولية، ولاسيما في إطار تفاعل النص والسياق، فلم نعد تعنى بالتّركيب والدّلالة في الخطاب الأدبي، ولكن بتداوليته، ولا سيما بتفاعل الخطاب والنص، ومن ثمَّ نجد المقتضيات اللّسانية مثلما هي في المجال الشّعري، ويمكن الإشارة هنا إلى ر.أوهمان R.Ohman المنتمي إلى الشّعرية التّوليدية، والذي توجّه نحو التّداولية وأعمال فان دايك المتعدّدة.

في الحقيقة فإنّ مختلف هذه الدّراسات لا تمتّ بصلة كبيرة إلى المفاهيم التي صاغتها التّداولية، فيمكن الحديث عن الرّواية أو القصيدة المدروسة بوصفها فعلا كلاميا كبيرا على أساس نموذج البنى الكبرى في علم السّرد، ولقد رأينا سلفا سارتر J.P.Sartre يندّد بهذا النّوع من التّحليل. والحل في هذه الحالة هو العمل وفق ما توصّل إليه فان دايك (النص: البنى والوظائف. مدخل أولي إلى علم النّصوص(، المؤلّف في الفصل الخاص بـــ»السياق التّداولي: النص باعتباره فعلا لغويا»، إذ يقدّم النص الأدبي على أنّه مشكّل ليس فقط من سلسلة من الجمل، ولكن مشكّل من سلسلة من الأفعال اللّغوية، والشّعر (تداوليا) مجموعة من الأفعال الأدائية تضبطها مجموعة من العلائق المتحكّمة في عملية إبلاغه...»[١٨].

إنّ السياق التّداولي هو السياق الأول (ثمّ يأتي السياق المعرفي: فهم النّصوص)، ولكن لا يوجد شيء يقول لنا أنّ الأفعال اللّغوية في سلسلة نصّية معيّنة يمكن أن توضع في علاقة عن طريق التحفيز أو التّفسير، فعن طريق تلفّظ جملة ما، أوجّه طلبا، وعن طريق الجملة السابقة أو اللاحقة أعلّل طلبي وأعرض المبررات، فبصفة عامّة يمكن أن نجعل الفعل اللّغوي معقولا بواسطة فعل لغوي آخر.

إنّ التّحوّل المبكّر للشّعرية التّوليدية تميّز قبل كلّ شيء بإقحام السياق، فإذا كان

النص فعلا كلاميا، فهو يدخل في إطار السياق خارج-خطابي، الذي ينبغي على المتكلّم إعادة بنائه لمعرفة البعد الحقيقي للنص. يتمثّل العمل اللّساني في وصف القواعد النصّية والسياقية المنتجة لمجموع الاختزالات اللّسانية الضمنية. وإذا أصبحت الدّعوة إلى القواعد التّداولية ضرورية، فليس لها إلا الدور التكميلي، الذي يبقي النّواة العامّة كمبدأ لبناء المعنى. ومثلما حدث في السّابق، فإنّ الشّعرية التوليدية وبغياب أخذ الاشتغال المميّز لكلّ نصّ في الحسبان، فإنّها تحكم على نفسها بالبقاء مبرمجة وشبه-شكلية. ومن الأعمال المهمّة، نجد ما قدّمه هانشر M.Hancher في كتابه Understanding poetic speech acts ، من حيث دراسته لكيفية تميّز النّصوص الشّعرية بفقدانها للعوامل فوق المقطع، ومثل هذا الغياب يمكن أن يمنع الدنّو من القوة الإنشائية للملفوظ. وإذا كان البعد الإنشائي مهمّا مثل أهميّة البعد القولي، فالقبض عليه يكون أقلّ سهولة، لأنّ التّلفّظ المكتوب يدخل في سياق أكثر تحديدا (ضيقا).

يدرس علم السرد الذي يعنى بالتّداولية الأفعال اللّغوية الخاصّة بالسّارد وبـالشخصيات بالخصوص، فالتّداولية تسمح بالتّمييز بين لغة السّارد بإزاء المتلقي السردي والعلاقات الحوارية بين الشّخصيات. مثلما حاولت نظرية التّلقي أيضا التلاؤم مع التّداولية من خلال الإطار الفنيمومينولوجي. لقد أصبحت عمليّة تلقي النصّ الأدبي والسياق التّاريخي الذي يتحقّق فيها أكثر مركزية، مقارنة بعملية الإنتاج وعلاقة الذّات بنصّها. ومثل هذا التّلقي غير قابل للفصل عن القراءة والتّفكير حول وضع القارئ، وبذلك نجد إيزرIzer ينتقد تعريف النصّ الأدبي باعتباره صياغة تخييلية، لأنّه يرتكز على تقابل خاطئ بين الخيال والحقيقة. فمن المقترح تعريف التّخييل بـــ بنية التّواصل بين الواقع والوعي، والمتميّز قبل أيّ

شيء بالمظهر الوظيفي. تفترض هذه البنية التّواصلية مرسلا ومتلقيا، ولكن يفترض أيضا بناء نصّيا متضمّنا للمخاطَب، حيث تبرز الفائدة بالنسبة للتّداولية، يقول جابر عصفور:» إنّ كلّ عمل شعري يعني تواصلا بين المبدع والمتلقي، والتّواصل يبدأ بتوصيل رسالة من نوع خاص ذات محتوى متّصل بالقيم»[١٩].

يوجد بالنسبة لإيزر اختلاف تداولي بين الخطاب العادي والخطاب التّخييلي. تكون الأفعال اللّغوية في الخطاب العادي خاضعة لشروط محدّدة، مرتبطة دائما بوضعيات ملموسة، بينما الأفعال اللّغوية في الخطاب التّخييلي غير مرتبطة بهذه الشروط، لأنّ الخطاب التّخييلي يعدّ تنظيما رمزيا غير محدّد مقاميا، والأفعال الإنشائية تلعب دورها خارج وضعيتها الملموسة، وفي هذه الحالة، تكون المؤشّرات النصّية ضرورية للسماح بإعادة بناء هذه الوضعية، وهو ما يستدعي العودة إلى المرجعية الذّاتية لجاكبسون كخاصية وظيفية للخطاب التّخييلي. إنّ العلاقة الحوارية بين النص والقارئ تتميّز ببناء وضعية لم تكن موجودة مسبقا، ففهم النصّ ليس شيئا آخر سوى أن تكون في خضمّ وضعية في حالة النّشوء عن طريق آثار العودة بين هذا النصّ وقارئه[٢٠].

إنّ مفاهيم «السجّل» و«الاستراتيجية» والتحقيق» موجّهة نحو ظاهراتية القراءة، ونحو نظرية مشاركة القارئ. ومن خلال الانعكاسية الذّاتية أو بناء المعنى عن طريق القراءة، تجد نظرية التّلقي معارضي النّقد الأدبي التقليديين. وفي هذا المقام والوضعيات، يقترح ر.وارنينغ R.Warning مقاربة تداولية مختلفة عن المقاربة السابقة، فهو يعتقد أنّ النصّ الأدبي خطاب يدخل في إطار وضعية معيّنة ويفترض مسبقا مرسلا ومرسلا إليه، كما يرفض ر. وارنينغ الحديث عن الخطاب الأدبي، ويفضّل مفهوم الخطاب التّخييلي. حتّى أنّه يقترح نمطا إنشائيا جديدا وهو ما يدعى

بـــ»التّظاهر»، ويفضّله عن النّمط الحيوي لاستعمال الخطاب.

يتعلّق الأمر هنا أيضا بإعادة صياغة الأفكار الأكثر تقليدية حول الأدب، والأكثر أهميّة هي فكرة الانشقاق بين وضعية تلفّظية داخلية» و»وضعية تلق خارجية». ومن ثمّ فإنّ الخطاب التّخييلي يعترف تداوليا بتزامن الوضعيتين، حيث تحتمل كلّ وضعية نظامها الإشاري الخاص بها. يعدّ هذا الانشقاق مواضعة تداولية كبيرة للنصّ الأدبي. ومن فائدة نظرية التّلقي أن تُحاول إدماج التداولية في استراتيجيتها وبشكل صريح. ولكن هذا الادماج يُشارك في التّرقيع النّظري، حيث تلتقي التّداولية بالسبرنيتية Cybernetique، فهي لا تُفيد عموما إلا في تقديم مصطلحية جديدة للمفاهيم الأكثر تقليدية للنّقد الأدبي، من إيحاء فيننومينولوجي بالخصوص، فهي تضع الفهم في المؤوّل، ولا تصنع القطيعة مع الأسس السميائية للتّداولية. إذن، لا يوجد انسجام موضوعي للتّقرّب الضروري بين التّداولية ونظرية التّلقي. ليس للتداولية الشعرية شيئا تخسره، ولكنها ستخسر كثيرا بالنّظر إلى هذا الالحاق، وعلى الأقل، يمكن لنظرية التّلقي صياغة بلاغة تداولية، ولا يمكنها أن تُعاين الوظيفة التمييزية للنصّ.

٣-٢ التّداولية والقصيدة الشّعرية

من المنطلقات الأولية للتّداولية رفضها للّغة الفلسفية، وبالخصوص للتقليد الميتافيزيقي والعودة إلى تحليل اللّغة العادية. والحال أنّ هذه العودة إلى تقييم الخطاب العادي تُؤدي إلى إبعاد الخطاب/ النص الأدبي. وبالتالي، في كتاب «كيف نصنع الأشياء بالكلمات»[٢١]، نجد أوستين يبعد الشّعر الذي يبدو له استعمالا للغة لا علاقة له بالأفعال الكلامية. إنّ الشّعر بالنسبة له وبسخرية استعمال طفيلي وغير جدّي،

وغير عادي للّغة، ولا يوجد أيّ شرط يسيّر هذه الأفعال، والتّلفّظ الإنجازي سوف يصبح فارغا بصفة مميّزة، إذا صاغه ممثّل على خشبة المسرح، أو أقحم في قصيدة، أو نُطق في إطار مناجاة الذّات، فهو يقول في هذا الصّدد:» إنّ القول الإنجازي سيكون فارغا، إذا نطق به ممثّل على الخشبة أو أُدمج في نصّ شعريّ»[٢٢]، ويعود سورل إلى هذا الإشكال في مقام The logical status of fictional discours» بإثارته لمجموعة من التّمييزات:

١. لقد اختار الحديث عن الخيال وليس الأدب، وفي رأيه لا يمكن إخضاع الأدب إلى التّحليل نظرا إلى وضعه الثّقافي (وليس اللّساني)، مثلما فضّل الحديث عن التّقاطع بين ما هو أدب وما هو غير أدب.

٢. ميّز سورل بين الخطاب الخيالي والخطاب التّصويري. بالنسبة لسورل، الفرق بين الملفوظ التّخييلي والملفوظ الأدبي منفصل عن التّقابل الذي كان يرغب في دراسته، فالتقابل الذي يقصده هو العلاقة بين التّلفّظ التّخييلي والتّلفّظ العادي، وكذلك فإنّ سورل يرفض تحديد الخطاب الأدبي بالخطاب المجازي.

وانطلاقا من المقارنة بين مقال من جريدة وجزء من رواية، يلاحظ سورل أنّ الأوّل يتضمّن الأفعال اللّغوية، التي تخضع للقواعد الدّلالية والتّداولية، وأنّ الثّاني يتضمّن –مثلما يبدو– الأفعال اللّغوية من الطبيعة ذاتها، ولكن غير مسيّرة بالقواعد نفسها، رغم أنّ هذه القواعد في هذه الحال تشكّل التّعريف ذاته للأفعال اللّغوية. بالنسبة لسورل، الاختلاف يكمن في أن يتظاهر مؤلف العمل الخيالي بتأدية سلسلة من الأفعال الإنشائية من المفترض أن تكون من طبيعة إثباتية / تقريرية (ولا يؤديها حقيقة). لا توجد معايير لسانية ومجالات نصّية من طبيعة تركيبية أو دلالية لتحديد

النصّ التّخييلي وتكون مرتبطة به مطلقا. ويبقى المعيار الوحيد متمثّلا في المقاصد الإنشائية للمؤلّف. ووضعيته الإنشائية تبقى مرتبطة بالمقاصد الإنشائية المعقّدة.

إنّ سورل في هذه الحالة يعارض المقاربة التّداولية التي تقترح أن تشكّل أفعال كتابة رواية أو قصيدة أفعالا إنشائية مختلفة عن الأفعال الإنشائية المألوفة. ولذلك، فهو يبيّن أنّ هذا سيؤدي بالضرورة إلى افتراض أنّ ليس للكلمات دلالتها العادية في الخطاب التّخييلي. يضع الخطاب التّخييلي في الرّهان سلسلة من المواضعات خارج لسانية غير الدّلالية ويصفها سورل بـــ «المواضعات الأفقية» التي تُدمّر التّرابطات الموجودة بين اللّغة والحقيقة التي صنعتها العلاقات العمودية دون تعديل في دلالة الخطاب.

إنّ العلاقات التي تربط الأفعال الإنشائية بالعالم معلّقة بواسطة مجموع المواضعات التي تجعل الإنشائيات مفترضة (الأقوال الإنشائية مفتعلة). والمواضعات الأفقية تعلّق الالتزامات الإنشائية العادية للملفوظات. وفي الأخير، يحدد سورل أنّه إذا كان الفعل الإنشائي مفتعلا، فالفعل التّلفّظي سيكون حقيقيا. والفعل الإنشائي المفتعل محقّق بواسطة أفعال صوتية وقولية (بمصطلحات أوستين)، وهو ما يفسّر غياب الآثار النصّية التي تفصل بين الخطاب التّخييلي والخطاب العادي «إنّ تحقّق إنجازية الفعل التّلفّظي مع قصدية الاستناد إلى المواضعات الأفقية هي التي تّشكّل الإنجازية المفتعلة للفعل الإنشائي»[٢٣]. لا تتجاوز مقاربة سورل المقاربة التّداولية، وإنّما تحاول استخراج المظاهر التّداولية المرتبطة بخصوصية الخطاب التّخييلي، وهذه المقاربة التي تحاول تحديد الانسجام الخاص بعالم الخطاب قد انتقلت في موضعها مقارنة بالفعل اللّغوي/ الكلامي.

وإن كان مفهوم التّخييل محل التّساؤل دون شكّ، فإنّ هذا الانتقال يُعلن عن توجّه جديد: عدم مقابلة الخطاب الشّعري بالخطاب العادي، ولكن إيجاد ووضع ما يخلق الخصوصية التّداولية داخل اللّغة العادية[٢٤]، ذلك أنّ « القيمة التّداولية تقوم على عملية إبدال وتحويل وتصعيد، بحيث تجعل من العمل الكتابي شيئا فنّيا، وتضع هذه القيمة النّشاط الكتابي على أساس كونه ممارسة للمرجعية الذّاتية في العمل اللّغوي. إنّ الفعل الكلامي الذي يتّسم بكونه أدبيا هو «تأثيري» أو لا يكون شيئا، فالأدبية هي إنجازية مطلقة للّغة إذ تتحوّل إلى وظيفة شعرية، أي أنّ الفعل الخلاّق لشيء لغوي يكون هو نفسه مرجع هذا الشيء»[٢٥]، ذلك أنّ النّاحية الإبداعية تخلّف وراءها عددا من الأفعال الإنجازية والتأثيرية التي سوف تتروح في درجاتها بحسب زاوية العمل بها.

٣-٣ التّداولية وشعرية الدّال (اللّفظ) والتّلفّظ

بالتركيز على التّلفّظ والخطاب كنشاط، فإنّ التّداولية تُؤدي فعلا أساسيا مقارنة بالمقاربات التّقليدية التي لا تأخذ في الحسبان إلا مستوى المدلول. إنّ المعنى لم يعد مطابقا للواقع، وليس إحصاء لقيم الحقيقة، ولكن هو قيمة الخطاب في السياق. ولكن الآثار النّظرية للتّداولية مستقلة عن الاستراتيجيات التي تجعلها في إطار النّشاط والعمل، لقد حاول النّحو التّوليدي، السردية، ونظرية التّلقي إلحاق التّداولية قصد اشراكها في بناء أنماطها النّظرية.

وانطلاقا من شعرية الدّال (اللّفظ) والإيقاع من المهمّ تحديد ما لا يمكن إنجازه تجريديا، وإنّما بعمل تجريبي فقط، يسمح عمل التّفكيك النّقدي للتّداولية بوضع تداولية شعرية. يبدو في هذا الإطار وجود شرطين: يتمثّل الشّرط الأوّل في أنّ

الدّراسة الدّلالية للقصيدة (نقصد بذلك عناصر المعنى) لا يمكن أن تُنجز دون دراسة الدّلالة العروضية، والدّلالة الإيقاعية، والدّلالة التّركيبية للقصيدة. والشّرط الثّاني يتمثّل في ضرورة التّفكير في القيم الدّلالية والتّداولية، ليس كقيمة خاصّة باللّغة، ولكن كقيمة خاصّة بخطاب معيّن، والاستعلام حول الأفعال الإنشائية في قصيدة معيّنة لا يهدف إلى إيجاد قيم اللّغة. وعكس هذا، ينبغي الاستفسار عن القيّم الإنشائية وعن الوضعيات التّلفّظية، والافتراضات المسبقة المشكّلة للنّظام في حال الكتابة.

الخطاب بالنسبة إميل بنفنيست ومن خلال مؤلّفه «مشاكل اللّسانيات العامّة» ينبغي تمييزه عن «الكلام»، لأنّ التّلفّظ هو الفعل ذاته لإنتاج الملفوظ، وليس هو نصّ الملفوظ، فهو يتحدّث عن اعتبار «إجراء اللّغة بمقتضى فعل فردي في الاستعمال»[٢٦]. إنّ علاقة المتكلّم باللّغة تحدّد الخصائص اللّسانية للتّلفّظ، وعن طريقها استطاع بنفنيست أن يُحيل إلى دراسة بعض المظاهر في الإجراء التّلفّظي وهي:

١. التّصويت أو التّحقّق الصوتي للغة.

٢. آلية الإنتاج والتّحويل الفردي للغة إلى خطاب، وهنا يكون «التّدليل اللّغوي» في مركز هذا التّمظهر التّلفّظي، ويُؤدي إلى نظرية العلامة والتّحليل الدّلالي[٢٧]، وهنا يمكن تحديد الشّعر من ناحية التّلفّظ، على أنّه فعل قول، أي فعل قول يحوّل اللّغة ويمارسها ويتملّكها[٢٨]، ممّا يُشير إلى امتلاك المتكلّم (الشّاعر) لناصية اللّغة، وتمكنّه من تنصيب متلق يفقه ما يقول إلى حدّ ما.

٤- الفعل الفردي وعلامات التّلفّظ

يعتقد بنفينيست في إمكانية وجود مقاربة أخرى تُعرّف التّلفّظ في الإطار الصوري لتحقيقه، فحاول الكشف داخل اللّغة عن الخصائص الشّكلية للتّلفّظ انطلاقا من الظهور الفردي الذي تحقّقه. فهنا يتعلّق الأمر باعتبار التّلفّظ الفعل ذاته تدريجيا، والوضعيات التي يتحقق فيها، وأدوات ذلك التّحقيق. وعن طريق الفعل الفردي، يصبح المتكلّم عنصرا ثابتا في الشّروط الضرورية للتّلفّظ. إنّ التّلفّظ في تحقيقه يقوم بإنشاء الخطاب، حيث يؤثّر المتكلّم في مستمع يمكن مناشدته بالإجابة.

إن حضور المتكلّم يمكن الإحالة إليه في كلامه الخاص أثناء الفعل الفردي لامتلاك اللّغة «وكلّ إنّية خطاب تشكّل مركزا للإحالة الدّاخلية»[٢٩]، يترجم هذا بلعبة الصّيغ المميّزة، حيث الوظيفة تتمثّل في جعل المتكلّم في علاقة دائمة مع تلفّظه، ولا ينفصل عنها.

نلحظ في ظهور علامات الشّخص في التّلفّظ علاقة (أنا-أنت) التي تُمثّل المتكلّم والمخاطَب، إلى أنّ علامات مثل الإشاريات أو ظروف المكان، وضمائر الشّخص، والصّيغ الزّمنية التي تتحدّد بإزاء النّظير، مركز التّلفّظ، والأزمنة الفعلية، ولاسيما «الحاضر» الذي يتصادف مع زمن التّلفّظ تدخل ضمن هذا الجهاز الضّروري... «الحاضر هو منبع الأزمنة، والإنسان لا يملك أيّة وسيلة أخرى ليعيش بها «الآن» وتحيينه وتحقيقه بإقحام الخطاب في العالم»[٣٠].

وبهذا يكون التّلفّظ هو الكاشف عن بعض العلامات المجهولة، ويعمّم بنفينيست ذلك أكثر بقوله:»إنّ ما يميّز التّلفّظ هو إبراز العلاقة الخطابية للمخاطَب سواء كان

هذا الأخير حقيقيا أو مفترضا، فردا أو جماعة»[٣١]. وباعتبار اللّغة نظاما مفتوحا تُحدّد بالنسبة لكليولي A. Culioli على أنّها وضع غير منقطع من العلاقات (الاسنادات، التلفّظ) التي ينتج بها المتلفّظون وينسجون لعبة منظّمة من المرجعيات فائضا من الملفوظات ويستعلمون التّعدّد الدّلالي[٣٢]. إنّ المنظور التّلفّظي في النصّ الشّعري سيكون مساعدا ومنفذا فيما يمسّ إنتاج المعنى. بالفعل، لا تُقحم اللّسانيات البنيوية في أبحاثها ما يتعلّق بإنتاج دال الخطاب الشّعري، حيث تصبح الاستعارات، وألعاب الكلمات، والغموض، وسوء الفهم، وتعدّد المعاني من غير الممكن تجنّبها (لا مناص منها)[٣٣].

إنّ الاهتمام بالقصيدة من زاوية التّلفّظ يعني تفحّص أفعال الخطاب التي تدخل القصيدة في تمازج الخطابات، ثمّ الاستعلام عن آثار العمليات التّلفّظية، ودراسة الجمل المعاد صياغتها، بالإضافة إلى الأبعاد التي تتمخّض عنها ومنها البعد السميولساني.

ولقراءة القصيدة من المنظور السميو- لساني ينبغي الانطلاق من التّصوّر الذي يتّخذ القصيدة على أنّها نتاج متميّز بدقّة لغوية عالية، وعلى أنّها تأليف راق من أوضاع مختلفة، والذي يفترض أيضا أن يُعرف بها على أنّها كذلك. ولذلك على القارئ امتلاك بالإضافة إلى الكفاءات اللّسانية (الخاصّة باللّغة التي كُتبت بها القصيدة) الكفاءة الخطابية التي تُحدّد له القصيدة وتكشف له المعنى، يقول جون ميشال آدم:» وضع العناصر في علاقة يساعد في إنتاج المعنى والنصّ)[٣٤]. إنّ ما يحدّد لنا القصيدة لأوّل وهلة هي الآثار الايقاعية، ولكن إدراك كلّ عناصر القصيدة وهي في علاقة،

تسمح لنا باستخلاص المعنى باعتبار القصيدة في شموليتها.

تشتغل القصيدة باعتبارها فضاء سميائيا، حيث الكلمات غير مرتبطة بالصدفة وبسبب نقل محتوى، وإنّما القصيدة تنتج من أكبر ضبط-ترميز، وتنتج من البياض والفضاء التبوغرافي، وبالعودة إلى النّبر والجرس الموسيقي، ودعوة الكلمات بالكلمات، وهذا دون الحديث عن التّلاعب بالصوّر والتّراكيب....»[٣٥]. يتوجّه اقتراح ريفاترM.Reffaterre الاتّجاه نفسه، فهو يقحم قطبين لقراءة النصّ الشّعري، قطب «المعنى» أو الإيمائي الذي يتبع الخبر الخطّي للقصيدة، والقطب «الدّلالي» الذي لم يعد يشتغل على محور تركيبي/ نظمي المرجعية، ولكن يشتغل على النصّ بأكمله باعتباره «وحدة صيغية ودلالية في الآن ذاته»[٣٦]، وهو ما يربط الشّاعر بشمولية قصيدته من حيث بناؤها ومن حيث محتواها، وما يجعلها غير منفصلة عن المرجعية التي تنبثق منها وتشدّ إليها خيوطها، وتحقّق بذلك أدبيتها.

تمتلك التّداولية الأدبية مكتسبات يتمثّل أساسها في دراسة اللّغة في سياق، ودراسة أنظمة العلامات كظواهر تواصلية، وأكثر عمومية، وكلّ دراسة لاستعمال اللّغة، يقول فرانسيس جاك: F. Jacques «تعتبر تداولية تلك الملامح التي تُقدّم لمقطع لساني (وحدات لسانية) وظيفة في إطار فعل أو لعبة تواصل»[٣٧]، وربما يكون الوقت مبكرا للحديث عن طريقة تحليل في التّداولية الأدبية، مثلما يمكننا الحديث دون مبالغة عن طريقة تحلل نقدية، أو لسانية، أو سميائية.

خاتمة:

إنّه لمن الأفضل الإشارة إلى الوعي التّداولي على طريقة جورج بولي G.Poulet الذي يكتب عن الوعي النقدي، أو هيرار وانريش H.Weinrich الذي تحدّث عن الوعي اللّساني، كما يمكننا الحديث عن الأفق أو المنظور على طريقة مانقونو D.Mainguenau الذي يبعد التّداولية عن التّصوّر المقيّد والتصّور المعمّم. ومثل هذه المخاطر (التقييد والتعميم) تواجهها أيضا اللّسانيات، والنقد الاجتماعي، والسميائيات، وعلم النفس التحليلي، يقول مانقونو:»اليوم، تعدّ التّداولية مقاربة ضمن مقاربات أخرى للنص الأدبي (إلى جانب مقاربة النقد الاجتماعي، وعلم النفس التحليلي، والموضوعاتية) أكثر من اعتبارها المنظور الذي تتقيّد بداخله مختلف المقاربات، التي يمكن أن تكون ممثّلة في السميائية، والأسلوبية والبلاغة.

إنّ مصطلحات الوعي، المنظور، والمقاربة هي تعيينات كشفية موجّهة إلى تقديم التّداولية الأدبية ليس بعدّها علما جديدا، ولكن بوصفها ضرورةً لرؤية جديدة يمكنها أن تحفّز على قراءة أكثر اهتماما بالأحداث التّلفّظية. والإقرار أنّ النصّ يعدّ قصيدة يفترض طريقة معيّنة للقراءة، حريصة على استعمال لغوي خاص، وبذلك الحديث عن التّداولية في الخطاب الشّعري ممكن إلى حدّ كبير إذا ما افترضنا المنطلقات والأهداف التي يصبو إليها الشّاعر، ويتمّ بذلك تصوّر كيفية تحوّل اللّغة إلى خطاب (نشاط)، وكيفية بروز الإنجازية في الأقوال من خلال التأثير في العواطف، فإن لم يستهدف الشّاعر الإنجاز الفوري للأقوال، فإنّ ذلك يعزى إلى طبيعة الخطاب ذاته، وأنّه ينصرف إلى نوع من الوعي التّداولي الذي نادى به جورج بولي، إذ ما يميّز اللّغة الشّعرية هي استمرارية القراءة والتّداول عبر حقب زمنية مختلفة.

الهوامش

1 - R, Jakobson, Essais de linguistique générale, Les éditions de Minuit, Paris, 1963, P 133.

2 - R, Jakobson, Essais de linguistique générale, Les éditions de Minuit, Paris, 1970, P 124.

3

٤ – فولفجانج ه.م.د، فيهقجر، مدخل إلى علم النص، ترجمه وعلّق عليه، ومهّد له سعيد حسن بحيري، ط١، مكتبة زهراء الشّرق، القاهرة ٢٠٠٤، ص ١٥–١٦.

٥ – ينظر رومان جاكبسون، قضايا الشّعرية، ترجمة محمد الولي، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدّار البيضاء ١٩٨٨، ص ٢٤.

6 - C.Tisset, Analyse linguistique de la narration, Sedes / Her, Paris 2000, p. 62.

٧ –جيلالي دلاش، مدخل إلى اللّسانيات التّداولية، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٩٢، ص٠١.

٨ –فرانسواز أرمينكو، المقاربة التّداولية، ترجمة سعيد علوش، ط١، منشورات مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب ١٩٨٧، ص٥٦.

٩ – شاهر حسن، علم الدّلالة، السيانتيكة والبرغماتية في اللغة العربية، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١، ص ١٥٧.

١٠ – نعمان بوقرّة، المدارس اللّسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠٠٤، ص ١٦٦.

١١ – فليب بلنشيه، التّداولية من أوستين إلى قوفمان، ترجمة صابر الحباشة، ط١، دار الحوار، دمشق ٢٠٠٧، ص ٢٤–٢٥.

١٢ –جابر عصفور، مفهوم الشّعر، ص ٢٣٢.

١٣ – عبد الله حمادي، مفهوم الشّعر، مجلة علامات في النّقد، الفرح للنّشر والتوزيع، منطقة الجامعة العربة، بيروت، لبنان، النادي الأدبي، جدّة، المجلّد ٤٠، جوان ٢٠٠١، ص٣١٦.

14-J. Caune, Esthetique de la communication, Que sais-je?, 1ere Editions, PUF, Paris 1997, P 97.

١٥ –أحمد المتوكل، الوظائف التّداولية في اللّغة العربية، ط١، منشورات الجمعية المغربية للتّأليف والترجمة والنّشر، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، المغرب، ١٩٨٥، ص٨.

16 - Emile, Benveniste, Problèmes de linguistique générale, Editions Gallimard, Tome2, Paris 1974, P 76-80.

17 - R. Eluard, La pragmatique Linguistique, Editions Nathan, Paris 1985, P 184.

١٨ –فرنسواز أرمينكو، المقاربة التّداولية، ترجمة سعيد علوش، ط١، منشورات مركز الإنماء القومي، المغرب ١٩٨٧، ص ٥٦.

١٩ – جابر عصفور، مفهوم الشّعر، ط٢، المركز العربي الثّقافي للثّقافة والعلوم، بيروت لبنان، ١٩٨٢، ص٢٣٢.

20 -H.R, Jauss, Pour une esthétique de la réception, Gallimard Editions, Paris 1978.

21 - J. Austin, Quand dire c’est faire, Traduction et introduction de Gille lanes, Editions de Minuit, Paris 1970.

22 -J.Austin, Quand dire et faire, p 47.

23 - J . Searle, Expression and meaning, Cambridge University Press, 1979, P 68.

٢٤ • التصوّر ضد تداولية الشّعر، قد دافع عنه جون بول سارتر «الشعراء أشخاص يرفضون استعمال اللّغة»، «الشّاعر يقع في الخارج، فهو ينظر إلى الكلمات بالمقلوب، وكأنّه لا ينتمي إلى

الشّرط الإنساني، وتوجّهه نحو النّاس، ويلتقي بالكلمة كحاجز» . ينظر: J.P.Sartre Qu'est ce que la littérature? Situation II P ٦٤-٦٥.

٢٥ – صابر الحباشة، أسئلة الدّلالة وتداوليات الخطاب، مقاربة عرفانية تداولية، ط١، دار زهران للنّشر والتّوزيع، عمان، الأردن ٢٠١٠، ص ١٢٩.

26 - Emile, Benveniste, Problèmes de linguistique générale, Editions Gallimard, Tome 2, Paris 1974, P 80.

27 - Ibid, P 80.

٢٨ – يمنى العيد، في القول الشّعري، ط١، دار توبقال للنّشر، المغرب ١٩٨٧، ص ١٢.

29 - Emile, Benveniste, Problèmes de linguistique générale, Editions Gallimard, Tome 2, Paris 1974, P 82.

30 - Emile, Benveniste, Problèmes de linguistique générale, Editions Gallimard, Tome 2, Paris 1974, P 83.

31 - Ibid, P 83.

32 - J.M. Adams, Les textes. Types et prototypes, Nathan Editions, Paris 1992, P 166.

33 - Ibid, P 166.

34 - Ibid, P 19.

35 - J.M. Adams, Les textes. Types et prototypes, 1992, P 19.

36 - M. Riffaterre, Sémiotique de la poésie, traduit de l'Anglais par Jean-Jacques Thomas, Editions du Seuil, Paris 1983, P 13.

37 -F. Jacques, « Pragmatique », dans Encyclopedia Universalis, Paris 1989, P856.

قائمة المصادر و المراجع:

١- جابر عصفور، مفهوم الشّعر، ط٢، المركز العربي الثّقافي للثّقافة والعلوم، بيروت لبنان، ١٩٨٢.

٢- رومان جاكبسون، قضايا الشّعرية، ترجمة محمد الولي، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدّار البيضاء ١٩٨٨.

٣- شاهر حسن، علم الدّلالة، السمانتيكة والبرغماتية في اللغة العربية، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١.

٤- صابر الحباشة، أسئلة الدّلالة وتداوليات الخطاب، مقاربة عرفانية تداولية، ط١، دار زهران للنّشر والتّوزيع، عمان، الأردن ٢٠١٠.

٥- عبد الله حمادي، مفهوم الشّعر، مجلة علامات في النّقد، الفرح للنّشر والتوزيع، منطقة الجامعة العربية، بيروت، لبنان، النادي الأدبي، جدّة، المجلّد ٤٠، جوان ٢٠٠١.

٦ - فليب بلنشيه، التّداولية من أوستين إلى قوفمان، ترجمة صابر الحباشة، ط١، دار الحوار، دمشق ٢٠٠٧.

٧- فولفجانج ه.م.د، فيهقجر، مدخل إلى علم النص، ترجمه وعلّق عليه، ومهّد له سعيد حسن بحيري، ط١، مكتبة زهراء الشّرق، القاهرة ٢٠٠٤.

٨- نعمان بوقرّة، المدارس اللّسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠٠٤.

٩- يمنى العيد، في القول الشّعري، ط١، دار توبقال للنّشر، المغرب ١٩٨٧.

١٠-أحمد المتوكل، الوظائف التّداولية في اللّغة العربية، ط١، منشورات الجمعية المغربية للتّأليف والترجمة والنّشر، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، المغرب، ١٩٨٥.

١١-جيلالي دلاش، مدخل إلى اللّسانيات التّداولية، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٩٢.

١٢-فرانسواز أرمينكو، المقاربة التّداولية، ترجمة سعيد علوش، ط١، منشورات مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب ١٩٨٧.

13- Adams. J.M Les textes. Types et prototypes, Nathan Editions, Paris 1992.

14- Austin. J, Quand dire c'est faire, Traduction et introduction de Gille lanes, Editions de Minuit, Paris 1970.

15-Benveniste. Emile, Problèmes de linguistique générale, Editions Gallimard, Tome 2, Paris 1974.

16- Caune. J, Esthétique de la communication, Que sais-je?, 1ere Editions, PUF, Paris 1997.

17- Eluard. R, La pragmatique Linguistique, Editions Nathan, Paris 1985.

18- Jacques. F, « Pragmatique », dans Encyclopedia Universalis, Paris 1989.

19- Jakobson. R, Essais de linguistique générale, Les éditions de Minuit, Paris, 1963.

20- Jauss .H.R, Pour une esthétique de la réception, Gallimard Editions, Paris 1978.

21- Riffaterre. M, Sémiotique de la poesie, traduit de l'Anglais par Jean-Jacques Thomas, Editions du Seuil, Paris 1983.

22- Searle. J , Expression and meaning, Cambridge University Press, 1979.

23- Tisset .C, Analyse linguistique de la narration, Sedes / Her, Paris 2000.

24-Sartre. J.P, Qu'est ce que la littérature? Situation II.